المناهل

١

قصة

وأخرجها من الجنّة

عبد الكريم غلاب

خافته كانت النقرة على الباب .

ومن عادتي الا آمر بالدخول ، فالذين ينقرون باب مكتبي يعرفون أني لا أمانع في دخولهم ، والذين يعرفون أني قد أمانع لا ينقرون الباب . واغلب ما تطرق الباب يد قوية تستطيع ان تسطني من اوراقي فارفع رأسي مستفهما . ولكن النقرة هذه المرة كانت خافتة على استحياء ، لم اهتم لها ، أو هي لم تستطع أن تلفت نظري ، فتماديت في العمل . تخلصت اليد الناعمة من استحيائها فعادت تنقر على الباب بأكثر قوة ، ولكنها مع ذلك ظلت خافتة لم يتردد لها غير صدى ضعيف في ارجاء المكتب .

رفعت عيني — وبهما شوق الى الاستمرار في تجاوب كامل مع القلم والورق — نحو الباب تنتظران . ظل الباب في هدوئه لا يريم . سرعان ما

تخلصت من فضولي فعدت الى اوراقي ، لكن الطرقة الثالثة كانت اقوى . ولم ارفع عيني حتى كان الباب ينفتح على استحياء اطل وجه صبوح لم اتبين منه غير عينين خضراوين او هما زرقاوان ، او لعلهما فرتا من الخضرة والزرقة واستقرتا في نصف الطريق .

كان صوتها هو الآخر خائفا مستعطفا :

— اتأذن لي بالدخول ... ؟

وهل يسعني الا ان اقول :

— تفضلـــي

كانت خطواتها بين الباب والمكتب لا تتفق في شيء مع نقراتها المحببة وراء الباب المغلق . ملابسها الصيفية مختارة بدقة . الوان كنارية تجلـــل القميص والسروال ، وفي عينيها وشعرها وبشرتها بعض من هذه الألوان .

— اعتذر . جئت على غير موعد . . .

توقفت عن الكلام وهي تمد يدها محببة . مددت يدي وعلى ملامحي كثير من علامات الاستفهام . اخذت عيناها تبحثان — لعلهما — عن كرسي امام المكتب . وكان علي ان اشير اليها بالجلوس ، فقد كان هناك كرسي ينتظر كل زائر . وطالما هممت برفع هذا الكرسي كما فعل زميل لي حتى لا اغرى الزائرين بالراحة . فغالبا ما تكون راحتهم هذه على حساب عملي ولا اقول راحتي . العمل ينتظر ، وسأعود اليه بعد ان ينهوا زيارتهم ، والكرسي وثير يغري بطول الزيارة ، ولذلك فهي معادلة غير سليمة . . .

لم تمهلني لابادر بالسؤال ، ولا هي اضاعت الوقت فيما يضيعـــه الغرباء او الاصدقاء كلما التقوا ، ولكنها اتجهت الي كما لو كانت تملي مـــن حفـــظ .

— لعلـــك لا تعرفنـــي

ولم تتوقف ، فقد كان من الطبيعي ان اجيب بأن الشرف لم يحصل من قبل ، وانما استمرت :

ـــ . . . اسمي سليمى من عائلة المليلي ، لعلك تعرف العائلة . . . ؟ عمي الحاج التهامي ، وابي كان اسمه عبد الله . . . انت لا تعرفه ، مات وانـا صغيرة ، اخوالي من عائلة الناظوري الحاج عبد الرحمن . .

وبدات اضيق ذرعا بهذا التعريف الطويل . لمست ضابط الحالة المدنية . حتى انطلب كل هذه المعلومات . . . ولم اكن اسجل وانما انظر اليها نظرة حياد ، لا اطلب المزيد ، ولا استطيع ان اسدمها فاتحول بها الى الهدف من زيارة على غير موعد .

كان بودي ان اواجهها بهذا الذي افكر فيه . ولكنها اكتفت بذلك لتقول على الفور :

ـــ جئت اليك لان عندي قصة لم اجد غير صحفي اختصه بها . . .

وكصحفي كنت ما ازال ضيق الصدر بهذه الحكايات ، فلست من نوع الصحفيين الذين يجرون وراء قصص الحياة والناس . ولكن شخصية الكاتب انتفضت في لتدافع عن حقها ، فوجدتني ارهف السمع ، ولو اني ما زلت ضائقا بقصة قد يطول بي سماعها . ولعلها لاحظت ارتياحا مازج ملامحي ، فـاضافـت .

ـــ كان من الممكن ان احكيها لآخرين ، ولكن هذه مهمة الصحافة ، ومن يستمع الى وانا الضحية ... ؟

وتطلعت الى وجه الضحية ابحث عن اثر الجريمة .

كان وجها ينبض بالحياة والعافية ، جميلا على قدر ما يكون وجه شابة لم تتجاوز الثلاثين الا بقليل . جميلة . خصلات من شعر ندت عن المحابس والثقاف كسنابل تمح في ربيع حياته ، ذهبية بنية شقراء ، لكنها تظلـل الوجه القمحي بهالة من فتنة .

لم اجد ظلا لبؤس ولا اثرا للجريمة . بدات اهتم بحديثها . فكلمة الضحية كانت سبيلها الى ان تجتذب اهتمامي . ولعل نظرة الحياد التي تجلت على وجهي منذ قابلتها اختفت لتحل محلها نظرة اهتمام بهذا الحدث الذي سعى الي يطرق مكتبي على غير موعد ، وبيد من كانت الضحية .

ـــ انا طالبة فى الجامعة . . .

وبدات الكلمات الفرنسية تأخذ طريقها الى المعجم الذي تتحدث به .

ـــ اعذرني اذا تحدثت بالفرنسية ، فهناك افكار ومواقف تخونني الكلمة العربية فيها . . . هكذا علمونا ....

ـــ لا بأس تكلمي بأية لغة تشائين .

قلتها لأجنبها الحرج والشعور بالنقص ـــ فيما بدا لي ـــ فأنا لا احب ان نجتمع على كلمة غير سواء . اشعر بحاجز يفصلني عن مخاطبي كلما استعمل لغة اجنبية عنا معا ، ولكني اضعف امام شاب او شابة تسبقها لغة اجنبية الى لسانها وهى تعتذر : هكذا علمونا ...

حاولت مع ذلك ان لا تستعمل الكلمة الفرنسية الا عندما تعجزها الكلمة العربية وانطلقت :

ـــ فى الجامعة اكمل ثقافتي . مسؤولية الحياة لا ترحم . والمرأة اليوم كالرجل تشعر بالمسؤولية وتقدرها . قد يكون ذلك على غير ارادة منها ، ولكنها الحياة تدفع بها لتتحمل مسؤوليتها . ولن تستطيع ذلك بغير تعليم جامعي ...

وبدات مرة اخرى اضيق بهذا الدرس الاجتماعي ، فلعلني فى غير حاجة لان التقاه من سيدة طرقت باب مكتبي لتقص قصتها .

ـــ انا اذن فى غير حاجة ... اعمل وادرس فى نفس الوقت وسيمكنني بعد

حين ان اعيش كما يعيش الذين يحملون شهادة جامعية فى استقلال كامل عن اي كان يرغب فى اعالتي او يستغل حريتي لانني فى حاجة الى ماله .

ما تزال نلقى الدروس الاجتماعية ، ولكن لا حيلة لي فى أن اوجه الحديث وجهة اخرى ، فقد قيلت منذ البداية ان استمع الى قصتها ، واستغلت هذا الحق فى ان تتحدث كما تشاء . وكانت كلمة « الضحية » هي التي عقلت لساني عن ان يتدخل ليختصر المقابلة او يوجه الحديث .

— . . . ثم انني ام لطفلين اعمل جاهدة على ان اسعدهما . . .

طالبة . . ام لطفلين . . تتحمل مسؤولية الحياة بشجاعة . . ضحية . . مجموعة خطوط رسمت امام ناظري لوحة تشكيلية « سوريالية » على وجه ينبض بالشباب والحيوية والجمال ، ربما كانت سن صاحبته لا تتفق مع كل هذه المسؤوليات. اقف امام كثير من اللوحات لاحاول ان افهمها عقليا، ولكني اعجب بها مهما تكن غير واضحة ، لان الطبيعة نفسها غير واضحة ، وقد لا تكون مفهومة . وبدأ بالفعل الغموض يرتسم على اللوحة الجميلة ، وبدات اجد صعوبة فى ان اكتشف اسرار ما وراء الاصباغ والالوان . وكما يحدث عندما اقف امام لوحة من الفن الجديد يستعصي علي ادراك اسرارها انهم ذوقي ، ان تواضعت فلم انهم فهمي ، ومع ذلك أجاري الذين يقفون معجبين متأمليل النظر ، وقد يكونون هم ايضا غير فاهمين ولا متذوقين ولكنهم امام ظاهرة الحداثة لا يستطيعون ان يعلنوا انهم لم يتذوقوا ولم يفهموا فيجارون الآخرين . ومع السيدة سليمى لم اكن افهم لشدة الغموض ، ولكن الحياة الآن اشد غموضا من قصتها وذلك نوع من الاغراء دفع بي الى الصبر وطول الاناة وانا استمع :

— . . كنت متزوجة من قبل . . لم نكن على اتفاق . . انجبنا طفلين . . افترقنا بهدوء . . اخذ كل منا طريقه . . تلك قصة اخرى غير مهمة . .

وكنت احسب انها بدات قصتها وان لغز الضحية اتضح ، فهي سيدة شابة تزوجت زواجا فاشلا اثمر طفلين . . تلك قصة حقيقية . . مأساة لا تكاد تخلو منها كثير من البيوت . ولكنها غير مهمة فى نظرها ، لانها قصة عادية . .

وكان على ان انتظر قصة اخرى انا الذي تزعجني قصص هذا الزواج المثمر غير الناجح . وانا الذي تنتظرني على المكتب كثير من المشاكل كل منها قصة تتطلب الحل . وما يزال هذا المكتب يحتمل ، فأمامه سيدة شجاعة فى تحمل المسؤوليات تحكي قصتها :

ـــ اعيش لهذين الطفلين ، واستطيع ان اعولهما بعملي وبما ترك لي والدي ، الى ان يستقر وضعي بعد الحصول على شهادتي الجامعية .

قدرت شجاعتها . ولم يبد على محياي انني مندهش لشجاعتها . فما ازال اقف محايدا رغم هذه البراعة التي اظهرتها فى حكاية قصة كان ـــ فيما الفت من قصص الآخرين ـــ يمكن ان تحكى فى لحظات .

ـــ .. انا لا اخشى الحياة . انت تعرف الشابة الجامعية التي مر بمراحل الدراسة ولم تتوقف عن المدرسة رغم ما يحيط بها من اغراء . شابة و . . . جميلة ، ولا اكتمك انـي ذكيـــة . . .

وابتسمت ابتسامة بريئة فعلمه قد بدا لها انها بالغت فى اطراء نفسها حيث لم يطلب منها احد ذلك ، حتى ولا ظروف المقابلة او الافتخـــار واستدركـــت :

ـــ لا اقول هذا لأفاخر ، ولكن لأؤكد لك ان مثل هذه الشروط تغري الرجل بالمرأة ، وتغري الزوجة بأن تلتهي بنفسها اعتمادا على رصيدها ، ولكني احببت أن اتعلم . فعصرنا عصر المساواة ، والمرأة التي لا تجد فى عضدها ثقافتها لن يحترمها زوجها لان شباب اليوم ـــ انت تعرف ذلك ـــ لم تعد المرأة عندهم لعبة او دمية ، مهما تكن جميلة ، يقضون معها اوقات فراغهم و . . .

ترددت قليلا وخفضت عينيها لحظة وهي تضيف :

ـــ . . . ومتعتهـــــم .

ولعلها كانت تنتظر مني تعليقا ، او على الاقل شهادة ، لله ، بما اطرت به نفسها من جمال وذكاء . ولكني ظللت محايدا رغم ان ما كان بي من ضيق قد زايلني . فقد اخذت اتتبع حديثها بشيء من الفضول ، ولو ان عنصر القصة اختفى منه او كاد . فقد اصبح حديثها يكتسي طابع الجدال والمناقشة.

ـــ . . . المراة اليوم كالرجل تحرز استقلالها الفكري والانساني والمادي ثم يمكنها ان تتزوج لتتعايش مع الرجل تعايشا سلميا .

قالتها بالفرنسية فكلمتا التعايش السلمي فيما يظهر لا تلفظان بغير الفرنسية .

ووجدتني اضطر الى الخروج عن حيادي السلبي . واذا كان لابد من حياد فليكن على الاقل ايجابيا . قلت في شبه اعتراض :

ـــ لعل ما بين الرجل والمراة ـــ اقصد الزوج والزوجة ـــ اكثر من التعايش السلمي . هناك الجانب العاطفي واكثر من العاطفي ، فالله خلق لنا من انفسنا ازواجا لنسكن اليها وجعل بيننا مودة ورحمة . .

فتحت عينيها على ابعادهما ، وكأنها لم تسمع بالفكرة قط . كانت تترجم العلاقة بينهما بالتعايش السلمي . ولها من التجارب ما اعطاها مثالا عن فقدان السلمية ثم فقدان التعايش . وكان الجدل من طبيعتها فاعترضت :

ـــ . . . كل يتحدث عن تجاربه . والتجربة هي منطلقي الفكري ، ولعلي لم اجرب كلمة السكن هذه : اسكن اليه او يسكن الي ؟

وانت حركة تضافرت كل ملامحها : عيناها ، حاجباها ، فمها ، كتفاها لتجيب بالنفي

وتحركت فيها غريزة الدفاع :

ـــ لا تظن اني مادية ، ولكني واقعية . لم يسكن الي ، ولم اسكن اليه . وانما كنا في وضعية تعايش سلمي . فلما انتهى ما بيننا من تعايش انتهى ايضا

سلميا . وبذلك حققت معنى الاستقلال الذي كنت أنشده ، كما كنت أحققه ونحن متعايشـــان .

كان منطقها سليما اكثر منه جريئا . ولكن سلامة المنطق ، الذي كان صوريا اكثر منه واقعيا لم تمنعني عن ان اضرب على وتر حسبت له نغمة ذات وقع في نفسها يمكن ان تغير معه رايها ، وانا ممن يؤمنون ان المراة تستطيع ان تغير رايها في لحظة ، قلت :

ـــ ولكن التعايش السلمي كان مثمرا . . .

انطلقت بذكاء لتجيب على الفور :

ـــ طفلان . . ؟ اليس كذلك ؟ يعيشان معي في سعادة ، لا اتركهما يشعران بأن التعايش السلمي انتهى اجله . . . يتعلمان في المدرسة ، ويجدان مـــن رعايتي ما لم يكونا يجدان من رعايته . . .

وسكتت قليلا وهي متحفزة بحركاتها ، وعيناها تائهتان في الشعاع الذي ينبعث من لون الزربية الحمراء ، واردفت وكأنما تتحدث بحركـــات كتفيهـــا وعضلات وجهها :

ـــ لم اكن اومن بأن حنان المراة هو الحنان ، لاني كنت انفر من الأنانية ، ولكن التجربة علمتني ان الرجل . . .

ساد صمت كأنما شيء اوقف كلماتها المنفجرة . وحملقت في وجهـــي لتستشف ما قد يكون ارتسم على محياي من غضب . ولكني ، فيما بدا لي ، لم اكترث ، فبنفس التسامح والحياد الذي قابلتها به لأول مرة كانت ملامحي ما تزال تعبر . واحببت ان اقطع حبل الصمت ، ولكني في الواقع كنت اهدف الى تشجيعها على ان تعبر . فما احب ان يتردد رأي او يحجم فكر عن ان يعبر عن نفسه لاعتبارات غير فكرية .

قلت وكأني اكمل جملتها :

ـــ . . . هو الأنانـــي ؟

ـــ بكل صراحة : نعم . بكل بساطة ترك طفليه لحناني .
قلت معاكسا :

ـــ لأن المرأة مستبدة . سلبته موضع الحنان لترضي أنانيتها في طفليها من حيث تحسب أنها تمتاز عنه بالتضحية .

كان يشق عليها ان تجادل بالمنطق . نظرتها الى الحياة واقعية ، ولا تكتم ذلك . شجعتها هذه المناقشة على ان تطرد عنها كل تردد ، شعـرت بالاطمئنان وهي تتحدث كما لو كنا نتعارف منذ زمن طويل . أجابت وهـي تحاول ان تثري حجتها :

ـــ افرض ـــ يا استاذ ـــ انني كنت من سيدات العصر الماضي ، أكـان يمكنني ان ارعى ابني ؟ أكان يمكنه ان يتخلى عنهما بعد ان انتهى عهـد التعايش . . .

أضافت وهي تؤكد على كلماتها :

ـــ . . . الذي ما أحسب انه سيكون سلميا . . . ؟

وكان علي ان اوضح حقيقة ، فقد اصبح ما بيننا جدلا عن حقائق حتى انها كانت تشعر ـــ فيما بدا منها ـــ بأنها تقوم بتمرين في المحاماة ، ولو انها لم تنه بعد دراستها القانونية .

ـــ الأنانية ليست مميزات جنس . وانت تعرفين ياسيدتي ان كثيرا مـن الرجال انانيون وان كثيرا من النساء . . .

لم تحتمل . بادرت بالمقاطعة :

ـــ لست على رأيك . . .

كأنها وجدت الفرصة لتؤكد رأيها فأضافت على الفور :

— . . . وقصتي ستعطيك الدليل . . . القاطـــع . .

— قصتهـــا . . ؟

تساءلت مع نفسي . فقد خيل الي انني استمعت الى قصتها ، وناقشت معها معطياتها ولم يبق الا ان تقول بلغتها المختلطة : « اورغوار » . . . ولكنها — فيما يبدو — لم تكن قد بدأت بعد الحديث عن قصتها التي دفعت بها الى مكتبي على غير سابق معرفة ، وعلى غير موعد . خيل الي ، وانا انظر الى كثرة الاوراق والرسائل وانزعج لرنين الهاتف من حين لآخر فيقطع حبل تفكيري وينتزعني من حديثي معها الى حين ، انني سأقضي صباحي ذاك استمع الى قصصها ، فهي راوية قصص وتجارب حياتية لا تخلو من اهمية. وهي مجادلة تحسب نفسها قوية الحجة .

— اليس من انانية الرجل ان في حياتي قصصا تروى ، وانا بعد في مقتبل العمر . لست جدة ولا عجوزا تطفح راسها بما جربت وما سمعت وما رات . . . لو لم يكن انانيا لما كنت احس بان في حياتي قصة تروى ؟

قلت محاولا ان اجردها من حماس بدا ياخذ طريقه الى لهجتهـــا في الحديـــث :

— تجاربنا تبدأ منذ ان نفتح عيوننا على نور الحياة . تبدأ قصة الانسان وهو يحاول جاهدا ان ينطلق من سجنه — كجنين — الى الافق الاوســع . واعترف ان الانسان يكتسب الموهبة القصصية حينما يعرف كيف يختـزن ويحكـــي ... الا تمارسين كتابة القصـــة ؟

اجابت وقد ارتسمت على محياها مسحة اعجاب :

— لا يا استاذ . لقد اخترت كلية الحقوق لانني لا احب ان اكون مدرسة ولا اديبـــــة . . .

ـــ اخترت اذن ان تكوني قاضية او محامية .

فوجئت وعيناها تطفحان بالغضب . امتقع لون وجهها ، اختفت سمرتها الممزوجة بشقرة. كادت تصرخ، لكنها استطاعت ان تمسك بأعصابها امام الحيرة التي انتابتني . قالت :

ـــ لا تذكر القضاء والقضاة يا استاذ . . .

حاولت ان اهدىء من روعها وانا اغير مجرى الحديث . عدت الى قصة التعايش السلمي . قلت :

ـــ لقد كان تعايشا سلميا انتهى بانتهاء قصتكما . انت الآن سعيدة فيما يبدو ، فلا تذكري الماضي . . .

بدا من ملامحها اني لم افهمها بعد . ولعلها اقتنعت بأني استمع اليها بنصف اذن ، او افكر في مشكلتها بنصف فكر . اعتدلت في جلستها ، واجهتني وهي تفتح عينيها على ابعادهما في وجهي كأنما حسبت انهما صلة التفاهم مع هذا الذي يقف من مشاكلها موقف المحايد ... ودت ـــ فيما خيل الي ـــ ان تقول لي : افهمني يا اخي . . . لم ابدأ بعد قصتي :

قالـــت :

ـــ كنت سعيدة حقا . . . اعيش في الجنة . . . الرجل ـــ بكل صراحة ـــ تجربة انتهت من حياتي . . . كان تعايشا سلميا وفراقا سلميا . اجتزت فيه التجربة بسلام . . . ونجحت . عرفت ما هنالك ، وانتهت المرحلة لاعود الى الحرية : الى الجنة التي نخرج منها عادة بالزغاريد والصلاة على النبي . . .

بدت لها لمحة من الاستغراب على وجهي فاضافت :

ـــ . . . لا تستغرب ان ينتهي الرجل من حياة شابة جميلة ومقبلة على الحياة ... ولكن التجربة اقنعتني بأن اشياء كثيرة يمكن ان يتخلى عنها الانسان

بشيء من الشجاعة . كثير من الناس يدخنون ، ولكنهم ينفضون أيديهم من الدخان بسهولة ، وكثير من الناس يشربون حتى لتمتزج دماؤهم بالكحول ولكنهم يهجرون الكأس .. والى الابد .. الرجل دخينة قد تتمكن من المرأة .. كأس خمر ، قد تخرجها من انطواتها ، من بؤسها ، من تفكيرها في الجنس الآخر. ولكن الدخينة تحترق بين أصابعك وتذرو الرياح دخانها في الفضاء . . والكأس تغدو كأسا يمج شرابها حتى المدمن نفسه — يستغني الكثيرون عن الدخينة والكأس ولا شيء يتغير في الحياة . . . ولا اكتمك اني شجاعة ذات عزيمة قوية ... استغنى بسهولة عن الدخينة ، عن الكأس . واعيش مع ذلك سعيدة . . . لا تظن بي نقصا في الانوثة ، ولكني قادرة على ان اعوض بالفكر، بالكتاب ، بحب طفلين جميلين، بحب الحياة التي افتح لها صدري بكل سعته، بحب الطبيعة . الرجل ليس كل شيء بالنسبة للمرأة ... وقد استطعت ان اتخلص منه ، ويمكن ان تتخلص منه الكثيرات ، لو تخلصن من تحكم العادة، من تقاليد المجتمع الذي تبدأ فيه العائلة تعد البنت الصغيرة لتكون لعبة في يد الرجل ، وتملأ احلامها الصغيرة بالفارس الذي سيمتلك روحها وجسدها معا . . .

خيل الي اني امام ثائرة لا يوحي مظهرها وانانتها بالثورة ، ليست ثائرة شارعية تقود المظاهرة او تخطب في اجتماع الطلبة ، ولكنها ثائرة فكريا تتحدث بالافكار الثورية وتطبقها في الحياة وبدأت انسى الأوراق ومقاطعة الهاتف والعمل الذي يتطلع الي في شوق . استمع اليها باهتمام ، ولكن طبيعة التحدي دفعتني الى القول :

— تعاندين الطبيعة بحماسك في وقت انفعال . نحن اثنان . لم نكن قط واحدا . آدم لن يكون لو لم تكن معه حواء ...

— قبل ملايين السنين كان ذلك . . . الا تؤمن بالتغيير . . ؟

— بلى . . . ولكن طبيعة الانسان . . .

قاطعت دون ان تعير اهتمامها الى انها تستعمل بعض العنف :

— وحتى طبيعة الانسان . وماذا يفعل التهذيب والاخلاق والتجربة

وقوة الارادة . نحن ضحايا الاستمرارية . ولو وقفت حواء ، اية حواء ، فى اي عصر كان لتثبت وجودها لأمكنها الاستغناء عن المسيرة مع رفيق طريق .

قلت متحديا :

— ولو وقف آدم . . . اي آدم . . .

قاطعت وكأنها تكمل جملتي :

— لاختصر المسيرة مع رفيقة طريق قبل ان يختار الطريق والرفيقة .

ساد بيننا صمت عميق لم يقطعه غير هدير السيارات فى الشارع يهز احيانا زجاج النافذة . ولكنها كانت مستغرقة فى تفكير . يخيل الى انى كنت انا الآخر مستغرقا فى مثل ما تفكر فيه . ولكن فكري اتجه بسرعة الى هذه القصة التي لا ادري اتخففت من عبئها ام ما تزال تختزنها .

رفعت اليها عينين مستفهمتين . ولعلها احست بأني اتجه اليها بأذني اكثر مما اتجه بعيني فاستجابت :

— الحياة ما تزال تقنعني بصدق نظريتي . . .

— هي فلسفة . . .

واكتست لهجتي طابع السخرية وانا اضيف :

— ربما كانت فلسفة عدمية . . .

ثم ازدادت لهجتي سخرية وانا اقول بشيء من الحماس بعد ان صوبت عينين نافذتين الى وجهها :

ـــ . . تولي لي . . الست عضوة فى الجمعية العالمية للتخطيـــط العائلـــي ؟

ادركت بذكائها مدى السخرية . ولكنها لم تحاول ان تدافع ، بل اجابت بسخرية مماثلـــة :

ـــ . . . بل عضوة فى الجمعية الفلسفية لتصحيح اوضاع الحياة . . .

وابتسمت كمحاولة لاطراء بديهتها الحاضرة . وابتسمت هي الاخرى اعجابا بقدرتها على الرد والمواجهة . ثم قالت :

ـــ ستقتنع اذا انا قصصت عليك قصتي . .

قلت فى مفاجاة :

ـــ اوما تزال هناك قصة غير ما سمعت ؟

ظهر على وجهها الانسى المزوج بالغضب . شيء ما يتحرك فى داخلها. تعيش قصتها ـــ فيما يظهر ـــ فى كل لحظة . منذ الممارسة كانت ، ربما ، بطلتها ، او احد ابطالها . مارست المأساة ، ولكنها ما تزال تعيش فى اعماق المأساة . كلما وقفت موقف الراوي اصبحت تعاني مخاض الميلاد . ميـلاد جديد ملامح وجهها وعيناها تنبئان بذلك . بدا لي انها ستمارس التجربة مرة اخرى لمجرد انها تروي ما مضى . لا اكتم اني اشفقت عليها . وكان بودي أن اعفيها من ان تروي ما حدث لو كنت انا الذي سعيت اليها لتقص علي قصتها، ولكني لا املك ان اعفيها مما تصدت اليه . كان من الممكن منذ البدايـة ان اتخلص من تبعات سماع القصة لو اعتذرت لها بأني على موعد . ولكنـي اصبحت احس بأني مدين لها ان استمع الى بقية الحديث . قصدتني ، وفى ذهنها عني مجموعة افكار :

ـــ طبيب لوضعية نفسية تعانيها ؟

جـائـــز

— صحفي في امكاني ان اذيع ما يتآمر المجتمع على كتمانه ؟

جـائـــز

— مساعد للخروج من مأزق وضعتها فيه ظروف صعبة ؟

جـائـــز

اكتسى موتفي طابع الاشفاق ، ولو انها فيما بدا من طبيعتها لا تقبل ان تكون موضع اشفـاق .

قلت وانا احاول ان ازيح عنها كابوس الاسى والغضب ، احاول ان اساعدها على اجتياز مرحلة المخاض دون ان تحس بأني اقصد ذلك :

— لا تبتئسي . الحياة كلها قصة . اذا سمعت منك اليوم فصلا منها . يمس حياتك فقد احكي لآخرين فصلا يمس حياتي .

احسست بأن كلماتي شجعتها ، ربما ازاحت ما تبقى من حجب بينها وبين رجل غريب تحاول ان تأتمنه على سر ، ولكنها مع ذلك ترددت قليلا وكأنها تبحث عن البداية ، عن الكلمات ، عن الصياغة . عيناها تترددان بين النافذة والزربية ، ثم تنلفتان في عصبية الى يديها ، اصابعها ، اظافرهـــا الوردية المصبوغة في حذق . . .

رن جرس الهاتف فانصرفت اليه لحظات شاكرا له ان انقذني من تتبع لحظة الحيرة والاضطراب . عدت اليها ، او عادت اليها اذناي ، فعادت الى بعينيها وكأنها جاءت من بعيد :

— اين وصلنا . . ؟ كنا في الجنة ؟ اليس كذلك ؟

ولم ابد حراكا . لم اتساءل ولم اعترض فقد عادت الى طبيعة المحايد، فهو عالمها تصفه كما تشاء . واضافت :

— واخرجني منها على حين غرة .

رغم اني كنت محايدا كنت حريصا على ان افهم ، فقلت :

— بعد ان انتهى التعايش السلمي ؟

قالت :

— صبرك ، فلعلي مضطربة لا ابين ، ولي العذر في ان اكون مضطربة ، ولكنك ستفهم عني .

— قريب مني بعيد عني ، عائليا ، يعرفني من بعيد واسمع عنه من بعيد . فوجئت وهو يتقرب الي ، الى العائلة فيزورنا من حين لآخر . وانا لا ارى فيه الا الجانب البعيد ، ولكنه — فيما يبدو — لم يكن يستغل الا الجانب القريب . كاشف مرة اخي بنيته .

عادت الى صمتها كأنها تترك لي المجال لكي ادرك الهدف . ولم يكن يخفى علي ان سيدة في مثل مركزها الاجتماعي والعائلي والثقافي ستجد من يتقرب الى العائلة ليكشف اخيرا نيته الى الشخص الكبير في العائلة .

ثم خرجت من صمتها :

— كدت اجن . فانا في جنة دخلتها عن عمد وسبق اصرار ، مستريحة اليها . دخلتها بعد تجربة لم تكن كلها نارا ، ولكنها مع ذلك اقنعتني بان الجنة هي مأواي الحقيقي ... معي فيها ملكان . ارى فيهما كل سعادتي ، ويربان في كل شيء في حياتهما . لم يكن الخروج منها موضوع تفكير حتى اخذ يطرق بابي الهادئة .

قلت محاولا ان اختصر :

— فكانت الاستجابة ...

نظرت الي نظرة عتاب ، واكتفت بالنظرة العاتبة عن الكلام وهي تضيف :

— عبرت عن رفضي التام بكل وسائل التعبير . فكنت في نظرهم عاصية شاذة .. وبدا الهجوم على الضحية من كل جانب .

تعاطفت نظريا مع الهاجمين فقلت في تلقائية :

— طبعا كلهم يحبون ان تخرجي من عزلتك . . .

— يريدونني ان أخرج من جنتي . . .

— حواء لم تجد صعوبة في الاقناع بالخروج منها .

— كانت ساذجة ، بسيطة ، قليلة التجربة . خرجت تبحث عن التجربة التي لم تعرفها من قبل . وكان الشيطان مخرجها .. اليس كذلك ..؟

— انا انت ؟

— عدت الى الجنة بعد ان اجتزت مرحلة التجربة . ولكن ..

سمعت آهة مريرة وهي تستدرك :

— يظهر اننا في شديد الحاجة الى المزيد من التجارب . . .

وعاد الصمت يطبع ما بيننا من مسافة تصيرة ، وكأنها تستعيد واقعا او فكرة . واهتدت اخيرا فتحركت في عصبية وانجهت نحوي بكليتها وكأنها تجادل :

— ما نزال نحن الضحايا ، اتصد المراة . الرجل دائما يتخذها لعبة ، لا يفكر فيها الا تحت ضغط العبث واللعب كما تفكر الطفلات في العرائس .

قلت في غير حدة :

— بعض الرجال . . .

بعد تـــردد اضـفت :

ـــ . . . مع بعض النســاء . . .

ـــ يظهر انك مثلي قليل التجربة . لا تعرف الناس على حقيقتهم. لانكم بحكم المهنة تلتقطون المظاهر والاشكال ، لا تقتحمون النفوس ولا تعـــرون الاشخاص من ملابسهم الرسمية ، ولا تحكمون على الاحداث الا من خلال ما تسمعون .

ـــ حلمك يا سيدتي . المهنة لا تطبع اصحابها بطابع واحـــد ، لا تظلمينـــا . . .

احببت ان اختصر ، اعود بها الى حديث حواء التي خرجت راغبة من الجنة . قلت وكأني اعود بها الى موضوع تحاول ان تهرب منه :

ـــ كانت ـــ غفر الله لها ـــ ساذجة قليلة التجربة ، فلم اقتديت بها وانـــت . . .

توقفت الكلمات في فمي ، وانقذت الموقف بكلمة :

ـــ . . . وانا بنتها : ساذجة ، بسيطة ، قليلة التجربة . . . ؟

ونظرت في وجهي بعينين مفتوحتين على ابعادهما ، وهي تنـيف :

ـــ . . . لا تستغرب . لو لم اكن ساذجة لما تغلب الذين هاجموني من كل جانـــب .

ـــ لابد ان حججهم كانت قوية . . . ؟

وضحكت في سخرية :

ـــ انت تعرف حجج الشيوخ ، ولو كانوا شبابا . . .

اكتسى صوتها لهجة التمثيل . كان يتغير فى كل فقرة وكأنها تمثل حوارا اشترك فيه رجال ونساء من كل عمر :

ـــ لا يجوز ان تبقى فريدة . . . الشباب غير دائم . . . الرجل فى البيت خباء يستر العائلة ويحميها . . . ماذا يقول الناس عنك وانت بنت العائلة والمجد لا ... جمالك وشبابك يغريان بك المتقولين ... مقامه كرئيس يعطيك اسما جديدا . . . سيغرقك فى النعيم . . . لا قيمة للمال عنده . . فكري فى المستقبل . . الحاضر سيصبح ماضيا . . اقبلي .. لا تكوني عاصية . .

صمتت قليلا ، ثم عاد صوتها الى طبيعته واستأسدت وهي تكاد تصرخ فى وجهي كأني انا الذي كنت احاور :

ـــ اعلنت لهم بصراحة انه يكبرني سنا . ربما كنت فى سن ابنته ولا اريد ان اربط حياتي بنصف حياة . . .

ترددت قليلا وهي تضيف :

ـــ انا بصراحة صغيرة السن ، على قدر من الجمال ، لا اطري نفسي ولكنه الواقع .

سكتت قليلا وكأنها تستعيد فصول مأساة ، ثم ارتعش صوتها وهي تضيف :

ـــ صرخت فى وجوههم : انه متزوج وله اولاد . . . وانا لا احب ان اكون احدى بناته . . .

طفرت دمعتان حارتان من عينيها رغم الشجاعة التي تحلت بها منذ طرقت باب المكتب ، واضافت :

ـــ . . . وكان هناك قلب متحجر ، رغم ما يكن لي من حب ، فواجهني : وانت ايضا كنت متزوجة ، ولك طفلان . . .

شعرت بنوع من الندم فاستردت شجاعتها ، تبخر الدمع من عينيها تاركا سحابة حمراء تخلط بالخضرة الزرقة ، وقالت وكأنها تدفع الهزيمة عن نفسها :

— ومع ذلك رفضت . . .

تنفست السعداء فقد احست بأن نهاية القصة كانت سعيدة وان السيدة سليمى ستريح اعصابي من توتر لم اتوقعه وهي تدخل مكتبي على غير موعد .

وعاد ما بيننا من مسافة يغرق في صمت هادىء ، حتى رفعت وجهها متحدية مرة اخرى :

— لم يكن لينهزم ، فقد اعتاد ان يصدر الاحكام ، ولم يصدر ضده حكم . كان رفضي بمثابة حكم اعتبره قاسيا .

اتجهت الى مخاطبة :

— انت لا تعرفه . . ؟

لم تنتظر ان اجيب ، ولكنها اضافت :

— . . عنود . . اناني . . ملحاح . .

عدت الى حيادي المطلق . وهي تستانف حديثها السابق .

— كان ، طبعا ككل الرجال (رمقتني بنظرة اعتذار) .. قادرا على ان يغرق كل حججي بحيثيات الاقناع التي يتقنها .

اخذ صوتها مرة اخرة يكتسي طابع التمثيل ، وتتغير لهجتها عند كل فقرة :

— الرجل لا يكبر .. حياته مع الآخرى سنبقى شكلية أولاده كبروا وسيشقون طريقهم فى الحياة . . . لن تكون لك صلة بهذا الماضي..

عاد الصمت يطبق على المكتب . عادت عيناها تبحثان عن شيء بين الخيوط الحمراء فى الزربية التي لمعت حمرتها فى الغرفة ، والشمس تجلل جانبا منها بضيائها الباهر . اكتسى المكتب طابع مسرح نفتن المخرج فى توزيع الاضواء على خشبته ، فى اعداد الجو النفسى عن طريق الاضواء الملتهبة ليساعد الممثلة الوحيدة على التلبس بدورها .

عادت من جولتها الفكرية الطويلة وكأنني كنت أقدر ابعادها ، واكتسى صوتها طابع الأسى الحزين ، انخفض حتى لكأنني كنت أجد صعوبة فى تبين مقولتـــه :

— واخيرا قبلت . . . تزوجته

انزاح عن كتفي عبء ثقيل . فقد كنت كطفل يريد ان يعرف نتيجة قصة سينمائية تقوم على صراع حاد بين البطل والبطلة . البطل دائما ينتصر ، ولكن الاطفال عادة يريدون ان يعرفوا السبيل الى انتصاره . وقد كان البطل هنا حرنا قويا عنيفا ملحاحا كما ادركت البطلة ، وكانت هي عنيدة معتزة بجمالها وشخصيتها . ولكنها طبيعة القصص السينمائية التي تؤلف لتعبر عن رغبة المشاهدين لا لتصور حقيقة او واقعا او ما كان يجب ان يكـــون حقيقـــة .

وانتظرت ان تقول :

— هذه قصتي فافعل بها ما تريد .. أورفوار . .

وضعت سليمى يدها على حقيبتها الانيقة ، كانت تضعها على جانب من المكتب ، وبدات تتحرك فى جلستي واستعد لامد يدي مودعا . فقد كنت مخلصا لطبيعة الحياد التي سادت علاقتي بالقصة منذ البداية . كان علي ان اقول لهـــا :

ـــ مبروك . . . حياة سعيدة . . .

ولكني لا ادري كيف احجمت حتى عن هذه التهنئة العادية . لم تنهض كما كنت انوقع ، ولكنها فتحت حقيبتها ولعبت الاصابع الطويلة الرشيقة في عب الحقيبة ، وكأنها تبحث عن شيء غير ضائع . علبة دخان امتدت بها يمناها الى يسراها ، وانجرت سلسلة خرجت من بينها ولاعة ذهبيـــة . انشغلت سليمى عني كأنها وحدها في المكتب ، واخرجت دخينة وضعتها على الجانب الايمن من شفتيها ، وبحركة ظقائية انقدحت الولاعة وهي تقترب من الدخينة فتنير وجهها بلهب ارجواني . شدت بعمق نفسا قويا ، انفتحـــت شفتاها عن غمامة هنيهة من دخان ناعم لم تنفثه شفتاها الى بعيد ، وانما جلل وجهها بضبابية ، كما لو كانت سحابة خفيفة تحاول ان تستر ضيـــاء القمر في لالائه . ضبابية لم تغلف ملامح الوجه الجميل فربما زادته اشراقا ، ولكنها شبيت ما تفكر فيه ، ما تريد ان تقول ، شبيت كلماتها الاخيرة :

ـــ واخيرا قبلت . . تزوجته . .

وكأنما تريد ان تضيف

ـــ عدت الى الدخينة ...

كانت عيناها متجهتين الى النافذة ، وكأنهما لا تريان . عادت تسحبت نفسا عميقا من دخينتها ، نفثته هذه المرة في عنف وعصبية . انجهت نحوي ـــ في ابتسامة مصطنعة ـــ وكأنها تذكرت شيئا مهما نسيته :

ـــ استاذن . . . الا يضايقك ان ادخن . . . ؟

لم تكن تنتظر مني جوابا . ولم اكن ادري كيف اجيب ، ولذلك ابتسمت في عفوية وانا افكر في ان الجلسة ما تزال طويلة ، وكان علي ان اقول شيئا:

ـــ لا ادخن ، ولذلك تجدينني بخيلا بتقديم الدخان

ابتسمت واصابعها تدلفان الى شفتيها بالدخينة .

عادت نجاة لتقول :

ـــ كان حريصا على ان يتم كل شيء في اسرع وقت . . . كتبنا العقد، وكان مبلغ المهر سخيا في الورقة الرسمية ، واصبحنا زوجين منذ ساعة اتخاذ القرار . اختصر ، فقد انتقلنا الى مدينة صغيرة جميلة لقضاء ايام العسل . اغدق علي كثيرا من الهدايا . كان مثال النبل ولطف المعاشرة . لم ار منه غير الوجه البشوش . اخذت احس بالسعادة . انزاح عني كابوس الوحدة . عادت الي كل معنوياتي في اني امراة . اكتشفت انوثتي من جديد . . . سمعت كلمات الحب والغزل . . . احسست اني كنت في حاجة الى ان اسمعها. المرأة وحدها لم تكن كافية ، كنت اخشى الا تكون صادقة . . . اختفت كل مخاوفي : كبير السن ، متزوج ، له اولاد . . . عاد امامي طفلا مدللا ينفذ بالاستعطاف والتحبب وهو يحقق رغباته . اختصر : لا استطيع ان اصف لك السعادة التي عشت فيها كزوجة لزوج ما كنت لاتمنى غيره ...

قلت وكأني اكتشفت تناقضا غريبا في هذا النموذج الذي اقتحم علي وحدتي مع العمل :

ـــ سعادة غيرت نظرتك الى الجنة . . . ؟

ونظرت الي كما تنظر الى شخص لم يفهمك :

ـــ لكنها اقنعتني بأني كنت في الجنة .

لم افهم . ولكني الفت اسلوبها في الحديث فما تزال للقصة بقية :

ـــ تستعجل اذن النهاية : اسبوعان من شهر العسل ، خيل الي انهما سنتان ، كنت اعب فيهما من متع الحياة ...

وساد الصمت من جديد . وعادت دخينة جديدة تقتصد شفتيها ، وعادت الشعلة الارجوانية تنشر ظلالها على الوجه الذي جللته مسحة من الاسى ، من الالم . وشدت نفسها العميق لتنفثه هذه المرة في عمق .

قالت ونفثات الدخان تخالط كلماتها :

ـــ وكان صباح ، لم يختلف عن كل الاصباح التي عرفتها حياتنـــا طوال اسبوعين .

ارتدى ثيابه وانا فى شغل بزينتي . اقترب مني من وراء وهو ينظر فى المرآة بلهف . وضع على كتفي يدين قويتين . انحنى . . .

توقفت قليلا وهي تعتذر :

ـــ اعذرني اذا قصصت عليك هذه التفاصيل . ربما كانت تافهة ، ولكنها ذات دلالة . . .

ثم استأنفـــت :

ـــ قبلني فى عنقي وهو يتشمم رائحة عطر كان قد اهداه الي قال فى صوت خافت :

ـــ اظن انك ستأذنين . . ؟

رفعت اليه راسي ، وكأنني اطلب المزيد . . . ابتسمت فى وجهه . قلت فى تلقائية :

ـــ وهل انت فى حاجة الى ان تستأذن ؟

اجاب بابتسامة عذبة :

ـــ هذه المرة انا فى حاجة الى ان استأذن . . .

نظرت اليه من خلال المرآة مستفهمة ، فاستمر كأنه يجيب :

ـــ سأغيب عنك يوما او يومين . لي شغل سيصرفني عنك بالرغم عنـــي .

قمت من مكاني مبتسمة . واجهته في عطف ، وضعت كفي على كتفيه ، قلت في صوت هامس :

ـــ ذلك واجبك . . . وواجبي انا ايضا . فلا احب ان يحرم عملك منك.

ارتسمت مسحة من السعادة على وجهه ، وهو يقول :

ـــ لا اعرف كيف اشكرك . ولكني اخشى ان تشعري بالوحدة ...

ـــ سأعود الى منزل العائلة في انتظارك .

وضحكت من اعماق قلبي وانا اضيف :

ـــ . . . كأنهم نسوني . . . لم يسألوا عني قط منذ تزوجنا . .

ـــ لم يسألون وهم على يقين بأنك في سعادة . . . ؟

اضاف وكأنه تذكر شيئا :

ـــ سأسافر وانا مطمئن حينما اعرف انك مع العائلة ، مع الطفلين .

كان صوتها وهي تروي هذا الجزء من القصة يطفح بالانوثة والرقة . كان كصوت ممثلة تعيش دورها بكل عواطفها وانفعالاتها . حتى صوت البطل وهي تروي عنه كان هادئا ناعما يكاد يتخلص من رجولته . وفجأة تهـــدج صوتها وهي تضيف :

ـــ وافترقنا . . .

تلاشها وانحبس الصوت في نعومته وتهدجه . وعاد الصمت ليخيم على جو المكتب ، وتسمرت عيناي على وجهها في فضول ، وانا احاول ان اكتشف ما وراء الملامح التي تجمدت . بدا عليها انها تغالب شيئا ما في عينيها كشفت عنه حمرة خفيفة شابت صفاءهما . استمرت كأنما لتروي حدثا عاديا وهي تكتم انفاس عقب دخينة ما يزال ينبض بحياة بين اصبعيها :

— . . . وصباح الغد فتحت عيني على برقية تخبرني ان ورقة طلاقي موجودة عند العدل السيد الحسن .

مدت يدها الى البرقية وهي تضيف :

— كان مكتوبا في الورقة : طلاق قبل الدخول ...

الرباط عبد الكريم غلاب